تعدّد مفاهيم مصطلح الفضاء في ضوء المقاربات السردية

د/ أحمد عراب

أستاذ محاضر "أ"

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

arabahm2@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/05/22 تاريخ القبول:2019/11/19

الملخص:

تعدّ طريقة تلقي مصطلحات علم السرد على مستوى التناول التنظيري هاجسا في مجال البحث الأكاديمي، علما أن الإجابة عن هذا الانشغال يتطلب منهجيا وضع المفاهيم قيد الدراسة والبحث ضمن قائمة أولويات التنقير في تسيير الحدود بين مصطلحات المفهوم الواحد في تداوله الدقيق، بعيدا عن التسامح العفوي المميع، والذي عادة ما ينجرف بالباحث نحو وجهات مجهولة، نظرا لسوء تقديره في التعامل معه، وفق ما تقتضيه قواعد علم المصطلح في هذا المجال الحيوي .

وعليه فليس من المنهجية التسليم مبكرا بنتائج قراءاتنا لمفاهيم علم السرد والاطمئنان إليها، في ظل اتساع دائرة الدراسات الأدبية لمفاهيم الفضاء والفضاء الأدبي والفضاء الحكائي وفضاء النص، دون العودة إلى ما أفادت به الدراسات الغربية والعربية في هذا المضمار، بعد أن حررت هذه المفاهيم من عتمة التعميم اعتمادا على تصورات فلسفية ونقدية رائدة قدمتها قراءات

ورؤى علماء نظريات الأدب كالبنيوية، والشكلانية والسيميائية والشعرية الحديثة .

وانطلاقا من هذا التصور تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقريب المفهوم السردي(الفضاء) من أفهام الباحثين في مجال الأبحاث السردية، وإمدادهم بالأدوات والمفاهيم الإجرائية لمطارحته، باعتباره مفهوما خضع إلى أسس علم المصطلحية ومناهجها.

الكلمات المفتاحية: الفضاء الأدبي / المصطلح السردي/ المصطلحية / الحيز/ النظريات/ المنهج.

The multiplicity of the concepts of the term space in the light of the narrative approaches

Summary:

The method of receiving the terms of the narrative at the conceptual level is a concern in the field of academic research, and the answer to this concern systematically requires that the concepts under study and research be included in the list of priorities for the management of the boundaries between the terminology and the one concept in its precise handling, away from spontaneous fluidized tolerance, which usually drifts the seeker towards unknown destinations, due to his poor appreciation in dealing with him , as required by the rules of the science of terminology in this vital area.

It is therefore not a methodology to give early recognition to the results of our readings of the concepts of narrative and

trust, in the light of the breadth of the literary studies of the concepts of space, literature, space and text , without reverting to the reports of Western and Arab studies in this field, having edited these concepts from the darkness of the generalization based on the pioneering philosophical and monetary perceptions presented by the readings and visions of the scholars of the theories of literature such as the structural, Shkalania, semiotics and modern poetry.

From this perspective, this research paper seeks to bring the narrative (space) concept closer to researchers in the field of narrative research. and provide them with the tools and procedural concepts to be, As a concept that has been subject to the basics of terminological science and its methods.

Keywords:
problematic/narrative/terminological/space/theories/curriculum.

تقديم:

إن البحث في مفاهيم الفضاء بوصفه مصطلحا من مصطلحات علم السرد، له ضوابطه التنظيرية، هو ما يتعيّن تحديده، على خلفية ارتباط العديد من الأشكال النثرية الحديثة في القصة والرواية والسينما، في علاقتها التاريخية بإشكالية الفضاء والفضاء الروائي، وارتباطها اصطلاحا بحدود المفاهيم التي تعيّنها جملة المصطلحات السردية، القائمة على الترجمة الحرفية في تفسير الخلفية المرجعية لمصطلح الفضاء" l'espace "، كما يقسمه هنري ميتران"بناء على الفرق الفاصل بين فضاء النص l'espace textuelle والفضاء من حيث هو

تخيل، والفضاء من حيث هو مضمون، ومعطى طبوغرافي حول الحدث المتخيل والمروي"[1].

إن تحديدات الفضاء بهذا المعنى، يعد بحق، أحد أعوص المشكلات التي تواجه البحث النظري والنقدي، لأن مقاربته تقتضي استقصاء التراث الثقافي والروحي للتشكيلات البشرية المتعاملة معه، وإن بدت أحيانا فطنة النقاد قاصرة على استشعار واحتواء مكامن اللبس و الاعتيام، الحاصل جراء الاستخدام الضيق لمصطلح الفضاء، أو المكان على الرغم من اتساع نطاق حقل استعمالاته.

من دون شك، أن هذا الشعور بالتقصير في الإحاطة بحدود المفهوم، عمّق لدى فريق من النقاد هوة التجاذب بين المفهومين، مما أتاح لكل فريق منح المصطلح ما يحقّق له فرادته وتميّزه واستقلالية معناه، وبالتالي " فقد ارتأى هؤلاء النقاد أن الأمكنة في الرواية تتعدد وتتنوع، فهي جميعها تشكل في الأصل حيّزا، وعلى سبيل المثال، فإن مصطلح المكان لا يمكنه أن يحتوي كل الأمكنة فابتكروا مصطلحا آخر تحت مسمى (الفضاء) ليشمل كل أمكنة النص".[2]

الإطار المعرفي لمصطلح الفضاء:

الفضاء أم المكان

يحاول مصطفى عبد الغني على نحو ما، تحرير"الفضاء" من مفهوم المكانية، بالمعنى العام (المكان الجغرافي في مفهومه التقليدي)، إذ يعمد إلى تقديمه على أساس كونه حالة إنسان في حيز جغرافي محدد، أي الحالة التي تضيف إلى حيز(المكان) سمات معينة، تتبلور عبرها دلالات أخرى أكثر دقة، أي هو فضاء مع كل ذلك، يحمل إيحاء ما يحدث، وليس الموقع الجغرافي بأية حال"[3]، وإن

توارد حضوره بكيفية ملفتة، في ثنايا صفحات النص، وعلي هذا النحو يصطبغ الفضاء بتلك الظلال العاكسة لصور ومشاهد، ذات أبعاد طبوغرافية مكانية، يبرزها المعمار الفني في بنية النص السردي، انطلاقا من إستراتيجية فعل الكتابة، وردود فعل القراءة، في ترقبها لحالة التوهم والتأمل، وهو ما يعني أن الرواية لا تستند إلى حالات السرد العفوي، بل هي صنعة".[4]

وفق هذه المعادلة (فعل الكتابة/ فعل القراءة)، فإن انتشار مفهوم الفضاء دونما حاجز يعين له الحدود، يعود في المبدأ كما سبقت الإشارة إليه، أي إلى التداخل الحاصل بين إستراتيجية الكتابة، وإستراتيجية القراءة بالتوازي، وبفضلهما أصبح الفضاء لصيقا بكل شيء، بكل حقل وبكل الصفات: فضاء أدبي، فضاء إيديولوجي فضاء العالم الخ..."[5]، مما يتيح للكاتب التخطيط لرسم المعنى المعقول واللامعقول، في نصوص روائية تمتزج الخاصية الأسلوبية فيها أساسا بالفضاء و بشعرية الفضاء، وبسيمياء الفضاء وبإيديولوجيا الفضاء، وبمثيولوجيا الفضاء. "[6]

لقد أثار حميد لحمداني إشكالية الفضاء، بوصفه معادلا للمكان، مقدما تبريرا لتصور مبني على فرضية أن الفضاء هو الحيز المكاني في الرواية أو الحكي عامة"[7]، وهو ما يمكن نعته بالفضاء الجغرافي مجازا،ذلك أن الروائي حريص على إعطاء إشارات استباقية تمهد لاحتواء فعل الشخصيات في المكان والزمان، لتنتظم مجتمعة ضمن مسرح الفضاء، بما أن لكل رواية صلة نسبية بالفضاء، فحتى عندما يضرب الروائي عن الوصف، فإن الفضاء يكون، على كل حال متضمنا في الحكي."[8] بالقدر الذي يسمح به المحكي، لأن ينتمي إلى الفضاء باعتباره فضاء روائيا مشغورا بقائمة طويلة من الأماكن الروائية، فالمكان في الرواية، وخاصة في الرواية الواقعية أخذ مكانة مرموقة؛ بحيث استطاع مع

أمكنة أخرى خلق فضاء واسع للرواية، ومن هنا لا بد من ربط المكان ودلالته بالزمن، والصيغة والصوت، فالكل معا يشكل الخطاب الروائي"[9] .

إن ما يمكن أن يستنتج من معاني تلك التراكيب اللغوية، التي توردها المعجمات اللغوية الأجنبية، سيشعرنا بهوة تلك الفروق الجوهرية، الفاصلة في حدّها لكل مصطلح باعتبار أن الفضاء الكلي هو espace و أن المكان place هو الجزئي ، وأن الموضع location هو الأكثر جزئية، و الأكثر تحديدا"[10] .

غير أن الشائع في مراجعنا الثقافية والنقدية العربية، ذات الصلة بالمرجعيات المستعارة في الغالب، هو ترجمة مصطلحي espace و place وحتى location على أنها جميعها مفردات مرادفات لمفهوم المكانية، والمكان lieu، هو الآخر قد يكون بعيدا عن هذه الحدود، إذا تحددت دلالته ورمزيته في الفعل الإبداعي، بما لا يترك أدنى شك في حصول أي تقارب بينه و بينها.

إن الإمعان حقا في معاينة هذه الجزئيات، مما قد يسبب حرجا معرفيا للدارس، قد ينجم عنه تضليل للوجهة التي ينبغي أن يرسو عندها نتاج هذا البحث، الذي يطمح إلى إبراز تلك الفروق، بما أن الفضاء لا يعني على كل حال المكان، والاثنان بعيدان عن مفهوم الموضع، وقد يعني مفهوم الفضاء l'espace معجميا ومجازيا غير مفهومه كعلامة خطية تحتل سلسلة متصلة الحلقات من أي شكل روائي أو قصصي"[11] .

لعل جدوى البحث عن مؤشر ما، في سياق ربط علاقة منطقية، تجمع بين والفضاء (المكان)، بوصفهما محورين رئيسيين في صلب هذه الدراسة، بالرغم مما تفرضه التقاطعات الحاصلة فيما بينهما، من حيث تباين المفاهيم في المقام الأول، إلاّ أن استعمال مفهوم الفضاء في حقل الدراسات السردية، لابد أن

يحيل إلى المسرح الروائي بكامله، من حركة وشخصية وزمن، حيث تتعقد علاقة عضوية بين الفضاء كمكان ومكونات العمل الروائي الأخرى"[12] أمر في غاية الأهمية، هذا المسرح الذي تتشابك فيه جميع المكونات السردية متّضمة ومتباينة، لتتجاوز حدود الدلالة المكانية، بالمفهوم الضيق للمكان، وليس الفضاء.

وبناء على ما سلف، فالفضاء مكون لغوي قبل كل شيء، أو بالأحرى فضاء لفظي" espace verbale "على حدّ تعبير جيرار جنيت، وفي هذه المسألة، واستنادا إلى مقولة جنيت دائما، يعقد علي مهدي زيتون العلاقة بين الفضاء اللفظي والفضاء المكان، وعبر آلية الوصف، باعتباره المدخل إلى ولوج مكونات الرواية، لأنه ينهض مقابلا للفضاء المشهدي في الفيلم، والفضاء السماعي في الحكاية "[13]، وضمن نظرة تمنح الفضاء اللفظي إمكانية دمج المجسمات، والأشكال والأحجام ذات الأنساق الطبوغرافية، في مساحة داخل منظومة اللغة، لتضطلع بدور تكميلي تتحول فيه مفردات الفضاء، وكل ملفوظ دال عليه، إلى صورة ذات أصباغ وظلال، تستمد دلالتها من تلك المفاهيم الفلسفية والسوسيولوجية، والفنية المندسّة في جذر كل كلمة، ينهض الفضاء على ترجمتها ومقاربتها إجرائيا في العمل الروائي.

ينتقل الفضاء عبر مرجعياته، (المكانية) وغير المكانية التي يحيل عليها، إلى أنوية من الدوال، في تعدد رموزها وإشاراتها الإيحائية، تتمخض عنها الرؤى والمواقف حيال الكون المتخيل، لأن العلاقة بين الفضاء والشكل الروائي ليست علاقة خارجية، تتمثل في وصف الأمكنة والأشياء، أو المواقف والعلاقات، والتناقضات الاجتماعية في العالم التخييلي، وإنما تنطلق من رؤية محددة للعالم"[14]، تقتضي هذه الأخيرة من الكاتب خبرة وفطنة كافيتين، لإدماج فضاء

بوصفه مكونا سرديا معادلا للمكان، محتفى به داخل السياق الكلي للرواية، في سبيل تعزيز مكانته وتماسكه في النص من جهة، و إنضاح طاقاته الشعرية من جهة ثانية.

إن الإحاطة بالمفهوم المصطلحي للفضاء ، ضمن أطره العلمية والفلسفية، تمدنا حتما بنتائج متوقعة، نفيد بها في دراستنا للفضائية الروائية، وبالتالي تعمق من فهمنا للعلاقة بين الأدب بوصفه إنجازا إبداعيا، والفضاء كحقيقة علمية قائمة على أدوات الاستقصاء والتجريب، تجعل من المتخيل صورة من الوجود المحايث للواقع، وعليه قد يشكل المنهج الفضائي بمعنى دراسة الفضائية في الرواية، مقاربة نقدية ملازمة للنص، يتبع عليها إدماج عدة حقول، تتضمن النظرية الأدبية والفكر العلمي والممارسة الفنية الفضائية والبحث الفلسفي".[15]

وغير خاف، أن تداول الكثير من الفرضيات النقدية لمفاهيم الفضاء، في تناولها له على المستويين التنظيري والتطبيقي، قد لقي رواجا كبيرا في الدرس النقدي، وبالخصوص، بعد استفادتها من تلك التوجيهات الصارمة، من قبل مناهج ورؤى علمية حداثية، تقوم على تبسيط المفهوم، وتقديمه وفق تصورات أكثر دقة، مبعدة كل تعاطي له، مما ترسب حوله (الفضاء)، من شائبة خلط في القراءة أو الاستيعاب، لتلك المرجعيات العلمية المستعارة على اختلاف منابتها.

وفي متابعة لمسار تطور مفهوم الفضاء في الدراسات العربية، وعبر مراحل رصد بداياته، ثار جدل حقيقي حول أصل المفهوم، وملابسات تطور الدراسات حوله، فقد لاحظ علي مهدي زيتون مثلا، في معرض مقاربته لفضاءات المكان في الرواية العربية، شكوى منهجية من طرف الباحثين العرب، مزعومة أساسا في ندرة الأعمال الجادة، المتجهة صوب معاينة مفهوم الفضاء و تقليب إشكالياته،

وعلى وجه الخصوص، مسألة التباسه بالمكانية، ذات البعد الطبوغرافي الهندسي، بدءا بحسن بحراوي، ومرورا بشاكر النابلسي، وصولا إلى عبد الصمد زايد، والأمر لا يعدو في اعتقاده آيلا إلى افتقارنا إلى بحوث جادة في هذا المضمار، بقدر ما هي إلاّ شكوى مبالغ فيها، وذلك استنادا إلى ما تمّ التأليف فيه في هذا الجانب"[16].

وفي في السياق ذاته، يورد صالح إبراهيم شيئا من الاجتهاد المنهجي عدّ خلاصة متابعة نقدية لجهود مجموعة من النقاد في البلاد العربية*، قد أثاروا أسئلة جدلية حول مفهوم الفضاء، وفق اتجاهات ورؤى متباينة أدبية وفلسفية، تحاول رسم حدود الفضاء من حيث هو التحام عنصري الزمان والمكان، ليأتي السرد مكملا ومتمما على نحو ما الشكل الذي يرسمه الفضاء كاستراتيجيه ثنائية، يقوم عليه الشكل الأدبي وفق تصور الكاتب"[17].

الفضاء و وهم المكان:

إن فكرة استيعاب "الفضاء"، منظورا و محتوى وعمقا دلاليا، لا يمكنها أن تنطلق أساسا من حتمية البحث في الفوارق المحددة للمصطلحات، بقدر ما يجب أن تستقر عمليا، مع الإقرار بأن الفضاء شرط الوجود الإنساني، وتعينه الذاتي لا يتحقق إلا به وفيه"[18]، لذلك لا يمكن تصور حضور فن من فنون المحاكاة خارج بؤرة الفضاء المكاني، والذي هو في عداد قائمة أحد مكونات الوعي بشرط الكتابة جماليا، وتكوينيا وجودا وذاكرة وهوية"[19]، لها(الكتابة) مقتضياتها الفنية، التي يغلب عليها طابع التحول والانتقاء، بحثا عن توظيف أنجع الأدوات في سلسلة التشكيل الفني، وعبر مساحات التجريب الجديدة والمغايرة الإبداعية، وإن بدا ذلك غير معني بالرصد الأمين أو الوفاء للتسجيل الحرفي لمفردات الواقع، وإنما وفق خطاب سردي له طابعه المجازي، تعلن عنه

جملة الاختيارات والانحرافات الأسلوبية الواعدة، باعتبارها نسوجا ومنجزات أكثر انفتاحا على طرائق الإبداع الفني.

عادة ما تقصر بعض الدراسات الفضاء، وتحشره في تصور ثابت لا يحتمل الغموض، منها على سبيل المثال، دراسة حميد لحمداني، إذ عدّ الفضاء عنصرا معادلا للمكان في الرواية أو الحكي عامة.أي ما يطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي l'espace géographique، وهو فضاء كفيل بتفعيل العملية الإبداعية، أو المغامرة الروائية، على اعتبار أن النص يتضمن إشارات جغرافية، تكون نقطة انطلاق أو التقاء أو نهاية، تعمل على إخصاب خيال القارئ، إلا أن دراسة الفضاء المعادل للمكان تمت دراسته وفق دلالاته الحضارية الملازمة له، وهو المسعى الذي انتهجته جوليا كريستيفا، أي دراسة الفضاء ضمن تناصيته بالوضع الثقافي للعصر، أي إيديولوجيم idéologèmeالعصر"[20].

والدراسات الحديثة، إذ تعيد طرح إشكالية الفصل بين المفاهيم والمصطلحات، إنما تنبها إلى أهميتها، في مجال تحرير الفكر النقدي من الممارسة العمومية السطحية، في تناول القضايا الأدبية ذات الطرح المثير للجدل، لذا شكل تمييز المكان والفضاء بالنسبة لأرسطو أمرا حاسما نظريا، لكنه ملتبس عند التطبيق .

ففيما يعتبر"المكان" الحدود الحافة بموضوع محتوي، يعدّ الفضاء الحدود الداخلية للوعاء المحتوى"[21]، دونما إشارة إلى العلاقة المقاربة بينهما، على سبيل أن الفصل بينهما مما يسمح للدارس إيلاء كل مفهوم نصيبه من البحث، وبالتالي فقد أدى ترجمة مصطلح"شعرية الفضاء" من اللغة الفرنسية la poétique de l'espace إلى جمالية المكان، في اللغة العربية إلى إحداث خلط في

الفهم، نجم عنه امتعاض شديد واعتراض على سوء الترجمة من لدن جماعة من النقاد *.

إن بنية الفضاء في العمل الأدبي تحتاج إلى إعمال أدوات فنية كفيلة بتثبيت موضعه في النص، بما يتوافق و حضوره المتميز، من خلال النحت في أبعاده الهندسية والوظيفية، بحيث يمكن أن يتجاوز هذا البعد، ويصبح إطارا لرسالة أعم وأشمل"[22] ليشمل كل الخطوط والدوائر، والانكسارات، باعتبار أنها علامات عاكسة لنظرة فنية، يحاول الأديب عن قصد الإشارة إليها.

من الخطأ الاعتقاد أن أهمية القضاء مقصورة على مقدار تواتره في النص الروائي ذلك أن المكونات السرد الأخرى لا ينتفي دورها، وإن توارى حضورها، ليس لكونها عديمة الجدوى، وإنما قد تغني اللمحة أو الإشارة إلى الفضاء بـ(هنا أو هناك) للإشهار بالمكان، ضمن سياق يجعل منهما فاعلين محفزين على توليد دلالات عميقة، ترسو عليها قراءة الرواية، من خلال منظور شامل، يحدده الفضاء النصي للرواية، ليلخص في تمثلاته ما يمكن أن ترصده الرواية، من قضايا المجتمع ضمن رؤية (سو سيو ثقافية) تعيد صياغة الوقائع، واللحظات النفسية المؤثرة، طبقا لإستراتيجية فضائية تنصهر في بوتقتها أشكال الزمان والمكان، وأفعال الشخوص، لا لاعتبارها تأثيثا لمنطق الخطاب السردي، وإنما أشكال تختزل مواقف وانفعالات شاعرية، مستمدة حضورها الفني، من مرائي التصورات الذهنية، والمرجعيات الروحية والفلسفية، التي استلهمت منظورها من الدرس النقدي الظاهراتي"[23] *.

لا يكاد يتفق النقاد حول مقولات المكان، وإن بدا الإجماع واضحا إزاء الدور الذي تبوّأه في المطارحات النقدية، زيادة عن الأهمية التي احتلها في المتخيل، بحيث أضحى أقوى المكونات التخييلية حضورا في العمل الأدبي، فالروايات التي

تبدأ بالاستهلال المكاني أكثر من أن يحيط بها عدّ أو إحصاء" المهم أن افتتاح الرواية بالمكان من أكثر السبل شيوعا للدخول إلى عالم الرواية، وكأن المكان هو البوابة الأقدر على تمكين القارئ من النفاذ إلى دواخل الروايات واكتناه أعماقها."[24]

وبناء على ما استفاده الدرس النقدي عبر مقاربته لأبعاد المكان، وما حفل به من رؤى وتوجهات، أفادت من المناهج البنيوية والسيميائية، وحتى الأسلوبية أضحت الإشارة إليه لازمة في سبيل طرق مغرقات العمل الروائي، من لدن الباحثين في قضايا المكان الروائي، وشؤون العلامات الدال عليها، على غرار المكونات السردية الأخرى ، كالرؤية زاوية النظر، والشخصيات والحدث والمشهد ...إلخ، فالوقفة حذاء المكان في انتسابه إلى فضاء الرواية واحدا ومتعددا، هو ما يصبغ عليه أولوية تفريغ النظرة إليه دراسة وتحليلا وتقيما، سدا للثغرات التي أهملها النقاد والروائيون في دراساتهم وأبحاثهم قديما، حين عدّ هذا المكون (المكان) عنصرا ثانويا خارج اهتمامات الدراسات الأدبية، منها الشعرية والسميائية في النقد الحديث، فهي لم تخصه بأية مقاربة وافية مستقلة"[25].

تفضي هذه الإيضاحة إلى تلمس مساحة للمكان ضمن صنف من المقاربة، تمكنه من إماطة القماط عنه، في ظل تنامي حقل الدراسات الشعرية، والسرديات الحديثة والتي إن أقرت بفضل الريادة لمكون المكان داخل فضاء الرواية، فهي في نفس الوقت تنأى به عن كونه مجرد خلفية مشهدية، قد يتسع لآلية الوصف القول فيه أو يقصر حسب طبيعة الوظيفة التعبيرية أو التزويقية، غير أنه مع أبحاث الفيلسوف باشلار والمنظرين الألمان الذين جاءوا

بعد روبير بيتش R - Petsch أصبح من الممكن التمييز بين مكانين، متعارضين هما lokal وRaum "[26].

ربما كان المكان ومتعلقاته في الرواية العربية من أنشط القضايا إثارة للبحث والاستقصاء، نظرا لاقترانه بالوجود والكينونة والهوية، ولأنه أعلق الموجودات بالوجدان العربي، انتخب ليكون موضوعا في كثير من الدراسات الموضوعاتية والجمالية والظاهراتية، طمعا في تجلية قيمه الشعرية والفلسفية والاجتماعية، بدءا من إعادة صوغ نظرة جديدة، وبناء نقد جديد، يستخلص قراءته من أبعاد المكان ووظائفه من خلال استكناه رموز الوقفة (الطللية) على المكان، فالمكان وفق هذا المطلب النقدي لا يمكنه الإفلات من شمولية النظرة الأدبية.

الفضاء مفهوم متعدد:

تقتضي عملية فصل إشكالية التداخل بين المكان والفضاء، على مستوى بنية النص الروائي، التزام إجرائي تستوجبه شروط البحث المنهجي، فالفضاء في الرواية ليس في العمق سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط والديكور، الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات، التي يستلزمها الحدث"،[27] فالفصل بين المفهومين هو من قبيل منح كل عنصر ما يستوجبه الاهتمام النقدي بالمكان، من جدوى في الرواية، ضبطا للمفهوم غير مستقل عن غيره من المكونات، بل في صلته بها في كليتها.

وللوصول إلى تدقيق في تلمس الفوارق بين المفهومين، نجد حميد لحمداني يفك الإشكال بإقراره بنسبية التمييز بين الفضاء والمكان، على اعتبار أن لا دراسة استطاعت الفصل في الإشكال، وإن كان هذا التمييز ضروريا"[28]، وعلى وجه الخصوص، إذا أسند إلى الوصف تحديد طبيعة الأمكنة، على الرغم من

محدودية الوصف، في توخي الدقة والمعيارية، نظرا لطابعه المتراخي التراتبي، المتقطع في تناوب، بين السرد والمقطع الحواري، وبالتالي لا يمكن وفق وجهة نظر السارد الحديث عن مكان واحد، وإنما أمكنة متعددة، فمجموع الأمكنة هو ما يمكن الاصطلاح عليه بفضاء الرواية، وإن كان المكان من متعلقات الفضاء في رحابته وشموليته.

واستنتاجا لما سبق، فإن تعدد الأمكنة الروائية هو ما يمنح الفضاء القدرة على احتوائها و تأطيرها، كيفما كان شكلها، شريطة انتظامها وفق ما يقبل به منطق الفضاء من اتساع وضيق أو انخفاض و سموق، تلبية لرغبة صانعه، فالفضاء بهذا المعنى هو المكان مفردا ومتعددا، ساكنا ومتحركا في مسرح الرواية، لا تختلف نظرة الباحث إليه عن النظرة للمكان، بما هو ملحق فني من توابع الفضاء، وهو حين يطغى عليه المكان بصورة لافتة، يحتل نفس المرتبة والمنزلة التي حظي بها الفضاء.

وتأكيدا لهذا الدور، دعا يورنوف إلى وصف طوبوغرافيا الحدث وصفا دقيقا، وتقييم وظائف الفضاء، في علاقته بالشخوص، في حين اقتصر شارل كريقل على إبراز ما اقترح تسميته بسردانية المكان، أي الخصائص والميزات التي تجعل وصف المكان لازما للإيهام بالواقع"[29]، وهي خطوات مهدت لرسم نظرية الفضاء، بحكم علاقة هذه الأخيرة، وفاعليتها في ترتيب عناصر المدونة السردية، ترتيبا يسمح منهجيا بتحييد كل عنصر، لقياس المستوى الفني الذي بلغه، ومن ثم قيمة حضوره داخل العمل الإبداعي، من حيث هو منجز أسلوبي جمالي[30] ".

من غير المتوقع، فهم طبيعة الحدود المشكلة للفضائية السردية، خارج عملية تفكيك منهجي للعلاقة المتداخلة بين عناصر المكونات العمل السردي،

وبالخصوص في الرواية المعاصرة ذات المستويات اللغوية المتجانسة، من حيث التعدد والاختلاف، في حوارية متجاذبة، على اعتبار أن أولى المقومات المنهجية ترتكز أساسا على فك كل أشكال الالتباس، و التماهي بين المفاهيم.

إن أولى هذه المطالب التي استقر فهم إبراهيم عباس حيالها، تتوقف أساسا على كيفية بلورة رؤية نقدية، مفادها أن تحليل الفضاء يقتضي منهجيا تحديد المفهوم وتجريده من العمومية والغموض"[31] ، ذلك أنه كثيرا ما تتماحى هذه المفاهيم في هلامية، وتتداخل فيما بينها، مما يوقع الباحث في الخلط والحيرة حيال مفهوم(المكان) كفضاء، أو الفضاء كمكان.

ودفعا لهذه الحيرة، يرد إبراهيم عباس أصل الإشكال إلى مفاهيم ثلاثة تتجاذب المفهوم(الفضاء)، أولها: هل الفضاء هو المكان الجغرافي espace géographique كما ينتعه يورنوف، والثاني الفضاء النص espace textuel كما يراه ميشال بورتور، والثالث الفضاء الدلالي espace sémantique كما يحدده جيرار جنيت"[32]، غير أن جل الدراسات التي انشغلت بهذا المكون، وعلى الخصوص السرديات اهتمت بالفضاء الجغرافي، وبالفضاء الدلالي، كونهما الأكثر تمثيلا في العمل الروائي.

وبالنظر إلى هذه التقسيمات المتقاربة، أو المتباعدة أحيانا، يرى حسن نجمي أن الفضاء، من وجهة نظر فلسفية سابق للأمكنة، بل إن له أسبقية تجعله موجودا، أي يقر بوجود فضاء، وبعد ذلك تأتي الأمكنة لتشغل حيزا في هذا الفضاء، وبالتالي يغدو المكان أو العلائق بين أمكنة معينة، أحد أسس هذه الفضائية، لكنها ليست هي كل شيء عند تحديد الفضاء، وعليه لا ينبغي للتفاصيل الطوبوغرافية على تباين أشكالها سوى إمكانية لعب أدوار ثانوية، ضمن منظومة بنية الفضاء الدلالي".[33]

الفضاء والتلقي:

تمثل محاولة حسن نجمي في كتابة "شعرية الفضاء" معبرا، لتلمس الفروق الفاصلة بين مصطلحين، ظلا متلازمين وملتبسين في الآن،(المكان، والفضاء)، من خلال النظر وبحماسة في الاجتهادات النظرية الغربية على وجه الخصوص، ومن ثم العربية، والتي يقر فيها باستحالة الإرساء على مفهوم قار للفضاء أو للمكان، وذلك في ضوء سرد بيبليوغرافي لقائمة من المداخلات، والمطارحات النقدية، تضع للباحث خيارات غالبا ما تغرقه في حيرة، نظرا لعدم التوصل إلى تصور واحد يرسم حدا للفضاء .

وفضلا عما سبق، نجد أن صاحب الكتاب قد شفّع وجهة نظره، مضيفا إليها كثيرا من الإضاءات، والاجتهادات النقدية حول الموضوع، انطلاقا من سعة اطلاعه على المنجز النظري، على اختلاف مرجعياته، الغربية والعربية، فضلا عن إلمامه بأهم الإشكالات النقدية التي أثارها الباحثون حياله(الفضاء)، ولاسيما النقاد الغربيون .

في حين نلفي أسماء شاهين، تفرد"للمكان" في الرواية العربية دراسة في غاية من الأهمية، وبالأساس في جانبها التطبيقي، غير أنها لم تعرض ولو بإشارة بسيطة إلى مفهوم الفضاء أو الحيز، وإنما اكتفت بإعطاء تحديدات لمفهوم المكان، وتقسيماته الفيزيائية من حيث الاتساع والانحصار، على غرار دراسات مشابهة في منطلقها ومنهجيتها، كما ألمحت في جانب من هذه الدراسة إلى أهمية (المكان)، باعتباره جزءا أساسيا في بنية هندسة الرواية ومعماريتها، وليس مظهرا تزويقيا، بمعنى أن جماليته تتفق وتتناسق وتتماشى مع جماليات الرواية الكلية".[34]

يبقى مجال الحديث عن" الفضاء "من المجالات الواعدة في النقد الأدبي العربي على الرغم مما صادفه لدى الغربيين من تضارب في الآراء، ولدى الباحثين العرب من غموض والتباس، نظرا لقلة البحث والدراسة فيه، و في قضاياه المعقدة، والتي تعود في الأساس لاعتبارات لغوية، تمسّ جانب الترجمة، ولتوجهات منهجية، مما يفسر قابليته للانفتاح على الكثير من الاجتهادات النظرية.

إن ما يدعو إلى الاهتمام بالفضاء، هو اعتباره(الفضاء) أرقى تمثيل لوعي الكاتب بشرط الكتابة، وهو المبدأ الذي تأسست إزاءه جل النظريات، التي ترجع أصل نشأته إلى ظهور الفنون مع مفهوم المحاكاة، ومنها تأسست الفضائية في الرواية على مفهوم الإيهام الثانوي، ذلك أن الفنون تنقسم بين الفنون الزمنية، المؤسسة على التتابع المحايث واللاعكسية (الرواية والموسيقى)، والفنون الفضائية الآنية والعكسية، على نحو محايث (الرسم والنحت والفن المعماري)."[35]

نتيجة البحث

والحاصل من ذلك، فقد تشكلت دراسة الفضائية في الرواية، اعتمادا على إدماج عدة حقول تتضمن النظرية الأدبية، والفكر العلمي والممارسة الفنية الفضائية، والبحث الفلسفي كل ذلك، يشكل تصورا دقيقا، يفتح المجال أمام الباحث لتعميق النظر في أصل المفهوم ومرجعه، حسب الحقل الذي ينتمي إليه.

إن تعميق البحث في مجال النظرية الأدبية، حول الفضاء، لا يمكن قصره لتعدد أبعاده على مجال، إلا بما تسنح به الدراسة، وفي هذا الشأن، فإننا نلفي

حميد لحمداني يلمح إلى "الفضاء الحكائي" على اعتبار أن أشكال الحكي مجال لدراسة وفهم الفضاء وبما أنه مستوعب فيه، لم يستقم على مفهوم واحد، وذلك لتراكم المفاهيم على قيمتها لتشكل تصورا حول هذا الموضوع"[36] .

غير أن أغلب التصورات على تباين وجهتها، تنحصر الآراء حولها في جملة من التصورات أهمها: الفضاء كمعادل للمكان، ويقصد به الحيز المكاني في الرواية، أي المكان الذي تصوره الكتابة وتستحضره، والفضاء النصي l'espace textuel وهو الحيز الذي تموج وتضطرب فيه أحرف الكتابة طولا، والفضاء الدلالي l'espace sémantique ، وهو فضاء ليس له في الواقع مجال مكاني ملموس لأنه مجرد مسألة معنوية، ثم الفضاء كمنظور أو كرؤية، وهو ما تعنيه جوليا كريستيفافيما يشبه زاوية النظر، التي يقدم بها الكاتب عالمه الروائي، وفق تجربته وحسه الشعري (الفني).

هوامس البحث

[1]- هنري ميتران: الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق الدار البيضاء المغرب ، دط 2002ص 135 .

2- ينظر سعد عمر عبد العزيز: تشكل الدلالة الأدبية في النص الروائي عند إبراهيم الكوني، (رباعية الخسوف نموذجا) دراسة تحليلية فنية ، أطروحة دكتورا ه، جامعة عين شمس، مصر، 2009 ص 43.

[3]- ينظر مصطفى عبد الغني: النص-القدس/الفضاء الفضاء الغارب التحولات (الرواية و المدينة)أبحاث ج 2 ملتقى القاهرة الثاني للإبداع.(مرجع سابق) ص445 .ص 453.

4 - أمبرتو إيكو:آليات الكتابة السردية،تر، سعيد بنكراد،دار الحوار للنشر والتوزيع ،سورية،ط1 ،2009ص 13.

[5] - حسن نجمي :شعرية الفضاء ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ط 1. 2000 ص 29 .

[6] - ينظر المرجع نفسه ص 30.

[7] - ينظر حميد لحمداني : بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب ط 1 .1991 ص 53.

- ميشيل رايمون:الفضاء الروائي .(مرجع سابق) ص 63. [8]

[9] - عزوزعلي إسماعيل: شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطان دار العين للنشر الإسكندرية، ط1 2010 ص219 .

10 - طاهر عبد المسلم: عبقرية الصورة و المكان دار الشروق للنشر و التوزيع عمان ط 1 ، 2002 ص 24 .

11-عبد الجليل مرتاض : دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث ،منشورات ثالة الجزائر (د .ط) 2005 ص 137.

12 - ينظرفاطمة سالم الحاجي: المدينة في الرواية الليبية: ثلاثية أحمد إبراهيم الفقيه نموذجا (الرواية والمدينة) أبحاث الجزء 2 المجلس الأعلى للثقافة، مصر ط1. 2008 ص96.

13 - ينظر علي مهدي زيتون: في مدار النقد الأدبي، (الثقافة – المكان – القص-) دار الفارابي، بيروت لبنان ط1 2011 ص 69 .

14 - ينظرإبراهيم السعافين: فضاء المدينة بين الرواية التاريخية والرواية الواقعية الحي الشعبي الحارة نموذجا (الرواية والمدينة) ملتقى القاهرة الثاني للإبداع الروائي الثاني المجلس الأعلى للثقافة ط1 2008 القاهرة ص68 .

15 - جوزيف "إ" كيسنر: شعرية الفضاء الروائي. تر: لحسن أحمامة، إفريقيا الشرق، المغرب دط2003،ص13.

16 - ينظر علي مهدي زيتون: في مدار النقد الأدبي . (الثقافة –المكان- النص) دار الفارابي،بيروت لبنان ط1،2011 ص 47.ص48.ص49.ص50.

*من بين ما ذكر الناقد صالح إبراهيم :حميد لحمداني ، حسن بحراوي، عبد الملك مرتاض ، محمد برادة .

17- ينظر صالح إبراهيم: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن عنيف: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ط1 .2003 ص8 . ص 9 . ص 10.

18- جوزيف"إ" كيسنر: شعرية الفضاء الروائي. (مرجع سابق) ص7.

19- عبد الله شطاح: شعرية المكان في الرواية الجزائرية (1992-2002) .مخطوط دكتوراه ، جامعة الجزائر 2 ص9.

20- ينظر حميد لحمداني: بنية النص السردي. (مرجع سابق) ص53.ص54.

21 - جوزيف- إ- كيسنر: شعرية الفضاء الروائي .(مرجع سابق) ص 19.

* لمزيد من الإطلاع فقد أثار إبراهيم صالح في كتابه (الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف)هذه المسألة بكثير من الشرح والتحليل .

22- هيام إسماعيل: بنية الشخصية في روايات عبد الحميد بن هدوقة مخطوط رسالة دكتوراه جامعة الجزائر ص 211.

- ينظر غاستون باشلار: جماليات المكان .تر: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء المغرب ط الأولى 1988 ص 10. 23

24 - صلاح صالح : قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر،دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة ط1 1997ص 24.

- ينظر حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي.المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب،ط 1،1990 ، ص 25.[25]

26- ينظر المرجع نفسه ص 26.

- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي . (مرجع سابق) ص31. 27

28- ينظر حميد لحمداني: بنية النص السردي .(مرجع سابق) ص 62.

29 - هنري ميتران: لفضاء الروائي .(مرجع سابق) ص137 .

30 - ينظر عبد الحميدالمحادين: التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1، 1999ص 89.

31- إبراهيم عباس: الرواية المغاربية. دار الرائد للكتاب، الجزائر،ط1،2005، ص 216 .[31]

- ينظر المرجع نفسه ص 216.[32]

33 - ينظر حسن نجمي: شعرية الفضاء. (مرجع سابق) ص44. ص 45 .

34- أسماء شاهين: جماليات المكان في الرواية جبرا إبراهيم جبرا .المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، الأردن ،ط1،2001، ص17 .

35 - جوزيف - إ - كيسنر: شعرية الفضاء الروائي .(مرجع ساب) ص 13 .

36 - ينظر حميد لحمداني: بنية النص السردي . (مرجع سابق) ص 53. ص55. ص 60 .

جوزيف "إ" كيسنر: شعرية الفضاء الروائي. تر: لحسن أحمامة، إفريقيا الشرق، المغرب دط2003،ص13.

ينظر غاستون باشلار: جماليات المكان .تر: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء المغرب ط الأولى 1988.

هنري ميتران: الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق الدار البيضاء المغرب ، دط 2002ص 135 .